

## الفصل الأول

ليوسعنهم خيرًا







كانت مكة تُودع ضيوفها الذين وفَدوا عليها من شتَّى بقاع الجزيرة ليشهدوا مهرجان «عكاظ» حيث تزهو القبائل بشعرائها المتفوقين، وحيث تزدان حَلْبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون ألعابهم في فن عظيم.

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدُّوا الرحال راجعين إلى بلادهم، ونُجوعهم - عدا نفر قليل منهم استهواهم البلد الحرام، فتهيبوا الظَّعن، وآثروا المكث.

من هؤلاء النفر، ذلك الشيخ الذي يقطع الطريق وهنَّا، مُيممًا وجهه شَطْر دار الندوة ليقضى بها ساعة الأصيل مع رفاقه في الشيوخوخة والذكريات..!

وإنه لَمَاضٍ في سبيله، إذ لقيه في الطريق أعرابي قريب العهد بمكة يعمل راعياً لدى واحد من سادات قريش..

ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تتحدر الكلمات من بين شفثيه في حَمِيَّةٍ وعجَلَةٍ.

- هل علمت النبأ العظيم يا أبا العرب.  
 - أى نبأ يا بنى...؟  
 - ذلك الرجل الأعسر اليَسْر..  
 ويتساءل الشيخ قائلاً:  
 - الذى كان يصارع فى سوق عكاظ..؟  
 - أجل... هو..  
 - ما باله يا فتى..؟  
 - لقد أسلم، واتبع محمداً..  
 ويُفِيق الشيخ من الدهشة، ويقول وقد كست وجهه حكمة  
 السنين:

- «أما والحق، لِيُوسِعَنَّهُمْ خَيْرًا.. أو لِيُوسِعَنَّهُمْ شَرًّا»!!

\*\*\*

أما الأعسر اليَسْر الذى كان يُصارع فى سوق عكاظ، فهو عمر..  
 وأما نبوءة العربى، فقد جاءت كفَلَقَ الصبح، وضوء النهار.  
 ومن ذلك اليوم، لم يعد الأعسر اليَسْر.. «عمر بن الخطاب بن  
 نفيل بن عبد العزى»، من بنى عَدِيّ.. لم يعد ذلك الذى يُصارع  
 الأشداء فى سوق عكاظ، بل صار «الفاروق عمر»، الذى سيصارع  
 الباطل فى جزيرة العرب، أوّل النهار.. وفى كل الدنيا، آخِرَه..  
 سيكون الرجل الذى يملأ أرض الناس عدلاً، وأمناً، ورحمة  
 وهُدًى.

سيكون «المعلم» الذى يَبْلُغُ الرشد الإنسانى على يديه رُشدَه.  
و«الأستاذ» الذى تجلس الدنيا عند قدميه..!  
أجل.. سيكون الإنسان الذى يرفع الله به من قَدْر البَشَر، وقدر  
الحياة.

\*\*\*

«ليوسعنهم خيرًا، أو ليوسعنهم شرًا»!!..!  
كيف أدرك الشيخ العربى، مصاير الأمور على هذا النحو السريع  
الفطن..؟

الحق أن الذى قُدِر له أن يرى «عمر» فى شبابه ولو رؤية عابرة،  
قادر على أن يردد نفس النبوءة، ويستشرف الغد الذى استشرفه  
الشيخ فى غير عَناء.

«فعمر»، ذلك الرجل القوى، المجدول اللحم، المشرب  
بالحمرة، الغليظ القدمين والكفَّين، العريض المنكبين، الفاره  
الشامخ العملاق، الذى لم يَسِر قط مع قوم إلا كان أعلاهم رأسًا من  
فَرط طوله.

الرجل الذى كان كما نَعْتُوهُ: «إذا تكلم أسمع وإذا مَشَى أسرع،  
وإذا ضرب أوجع».

«عمر» الذى لم يَخَف قط فى حياته أحدًا، ولم يختلج جنانه  
الصامد أمام رهبة أو فزع.

«عمر» الذى ورث من طباع أبيه، صرامة لا تعرف الوهن،  
وحَسَمًا لا يُؤرجحه التردد، وتَصَمِيمًا لا يقبل أنصاف الحلول.  
«عمر» هذا.. من اليسير جدًّا استكشاف حقيقته، وقراءة دخيلته  
والتنبؤ بمصاير الأمور بين يديه، فإما أقصى اليمين، وإما أقصى  
اليسار.

إنه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية، وتعددها..  
ومركز الثقل فيه، لا تتناوبه أشتاتُ نفسٍ مُوزَّعة، ولا تميل به  
أهواء متنافرة، إنما تحتشد به شخصية متَّسقة حافلة.  
فحيث يوجد «عمر» توجد كل شخصيته، وكل إرادته، وكل  
منهجه.

لا ينقسم على ذاته أبدًا.. ولا يضع إحدى قدميه هنا - وثانية  
القدمين هناك.

إنه رجلٌ «جَمِيعٌ» تتحرك كل قدراته فى دقة واتِّساق.. يفوقان  
دقة الجيش المدرب واتِّساقه. وليس لذرة واحدة فى كيانه فرصة  
للتخلف.. أو للتلكؤ، أو للنَّشاز..!  
إنها طبيعة فذة قلما تتكرر، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة  
من البشر نظير.

ولقد كان الرسول ﷺ يدرك عظمة الطبيعة البشرية التى  
رُزِقها «عمر».. وكان يعرف ما تنطوى عليه من أصالة واقتدار..  
كما كان يعرف ما يتمتع به «عمر بن هشام» من جاه ونفوذ.

من أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسلام بأحب الرجلين إليه - «عمر بن الخطاب»، أو «عمرو بن هشام».

ولقد ربح الإسلام أحبَّ الرجلين إلى الله، وكان «عمر بن الخطاب» صاحب الفطرة القوية السوية الجياشة... ألقى ثقله كله في كفة التوحيد، على حين ألقى الآخر ثقله في كفة الشرك. ولكن مصير الميزان تقرر في نفس اللحظة التي أصبح فيها «عمر» قوة في إحدى كفتيه، واستبانَ غَدُ الإسلام كضوء الفجر منذ قال «ابن الخطاب»: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»..!

يقول عبد الله بن مسعود: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر»..!!

\*\*\*

هذا العنفوان الوثيق في شخصية «عمر» كان يبدو كما لو كان تطرفًا، وتزمتًا، وغلظة..

في الجاهلية، كانت مُحَادَّتَه للإسلام، تكاد وحدها تعدل أذى قريش.. وكان تشبثه بموقفه يدحض أى أمل في عدوله عنه، حتى لقد صورَّ أحد المسلمين يومئذ يأسه من إسلام «عمر» بقوله: «إنه لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب»..!!

وفي الإسلام، صارت مُحَادَّتَه للوثنية تكاد تعدل وحدها مقاومة الإسلام بأسره، وصارت صرامته العادلة العاقلة مضرب الأمثال، حتى لقد كان الوحيد بين الصحابة الذى يُكثَر من

مناقشة رسول الله ﷺ ، والذي يقترح أحياناً على الرسول ، فيمضى رسول الله ﷺ ما اقترح ، ويسن ما ارتأى. وكان شديد الوطأة على خصوم الإسلام بصورة تفرد بها عن سواه. بيد أن ذلك لم يكن من «عمر» تطرفاً ، ولا تزمناً ، ولا قسوة. إنما كان تفوقاً..

ذلك أن الطبيعة التي كانت تحتشد مواهبها وقدراتها على هذا النسق الفذ الذي توفر «لعمر» ، لا يكون لصاحبها الخيار إلا في مستوى هذا التفوق المهيمن العميم.

وهكذا كان «عمر»..

رجل مُزود بطبيعة مشحونة قوية ممتلئة.. طبيعة مستقيمة القصد ، شديدة الأصر ، سواء في ضلالها وهداها.. وهى إذا اتخذت موقفاً ، تبلغ فيه المدى. لا استجابة لنزعة الغلو ، بل تحقيقاً لإمكاناتها الحافلة ، وتعبيراً تلقائياً عن تفوقها وامتلائها..

إن ثمة فارقاً كبيراً بين التفوق والتطرف..

الأول ، يشبه النمو الطبيعي.

والثانى ، يشبه مرض نمو العظام.

الأول تثمره خلايا حيّة عاملة ، وطبيعة سوية نامية ، والثانى عرض من أعراض العلة والسقم..

والتفوق ، قوة عادلة تتضمن الحكمة ، ولا تستعلى على الخير ،

أو تتوارى من الحق..

وهكذا كان الذى مع «عمر» التفوق، لا التطرف.. والقوة،  
لا القسوة..

وإن الظروف التى أزعجت إسلامه وأحاطت به لتكشف جوهر  
طبيعته، وتوضح هذا أوضح بيان..

\*\*\*

ذات يوم لأهب، خرج من داره حاملاً إصراره الحُرور، وسيفه  
الجسور، مَوَلِيّاً وجهه شطر «دار الأرقم» حيث كان الرسول ونفر  
من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك، ويعبدونه.

وفى الطريق يلقاه «نعيم بن عبد الله» فى ملامحه تتفجر بأسا  
ونقمة، فيقترب منه فى وَجَلٍ ويسأله:

— إلى أين يا «عمر»..؟

فيجيبه: «إلى هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش وسفّه أحلامها،  
وعاب دينها، وسب آلها فأقتله»..

ويذهل «نعيم» عن إحساسه بالموقف، وبالخطر الذى ينجم عن  
معارضته لعمر، فيقول له:

— «لبئس السعى سعيك، وبئس الممشى ممشاك»..!

ويخشى «عمر» أن يكون «نعيم» قد أسلم، فيقول له:

— «لعلك صبأت... إن تكن فعلت فواللآتِ والعزى لأبداً أن بك».

و«نعيم» يعرف تماماً أن «ابن الخطاب» يعنى ما يقول، فيُنهى  
الجوار بعبارة تلوى زمام «عمر»، إذ لا يكاد يحتمل وقّعها الشديد:

– «ألا فاعلم يا عمر أن أختك وزوجها – سعيد بن زيد – قد  
أسلما، وتركنا دينك الذي أنت عليه»..  
– أخته...؟؟ فاطمة بنت الخطاب..؟؟  
ماله ولدان الأرقم إذن، وقد اقتحم الخطر داره هو وعريته..؟؟  
وهكذا، أغذَّ السير إلى دار ختنه «سعيد»..

\* \* \*

فى جوف الدار كان «سعيد بن زيد»، وزوجته «فاطمة بنت  
الخطاب» و«خباب بن الأرت»، وملء أيديهم صحيفة فيها من  
وحى الله آيات يتلونها ويتدارسونها.  
وقرع الباب قرعاً رهيباً..  
وقيل: مَنْ؟ قال: عمر..  
أما خباب، فسارع إلى مخبأ قصي في الدار، سائلاً الله حفظه  
وغوثه!!..

وأما أخت «عمر» وزوجها، فقد استقبلاه لدى الباب يغشاهما  
ذهول المفاجأة، ولم تنس بنت الخطاب فى هذه الغمرة الداهمة،  
الصحيفة الكريمة التى بها آى الله فخبأتها تحت ثيابها.  
قال «عمر» والهول ينقذف من عينيه: ما هذه الهيمنة التى  
سمعتُ عندكم؟

أجابا: لا شيء، إنها نجوى وأحاديث..  
قال لهما: سمعت أنكما صَبَأْتُمَا...

قال سعيد: «أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟؟»  
ولم يمهل «عمر» حتى يتم حديثه، فوثب عليه في عنفوان  
لَجِب، وأخذ برأسه يجره ويلويه، ثم ألقاه أرضاً، وجلس فوق  
صدره.. وحين تقدمت أخته لتدافع عن بَعْلِها أصابتها منه لكمة  
أدّمت وجهها فصاحت به وكأنها بوقٌ سماوى يُدوى ويصلصل:  
- «يا عدو الله، أتضربنى على إيمانى بالله الأحد؟ ألا ما كنت  
فاعلاً فافعل؛ فإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»..!  
والآن، انتبهوا جيداً، فإن اللحظة الحاسمة تدق، مؤذنة  
بالتحول وكاشفة عن الجوهر النقى القوى الذى صنعت منه فطرة  
هذا الرجل الكبير. فبينما هو فى بأسه الشديد ذاك، يجابهه الحق  
عالى الصيحة، فيلين له «عمر» ويتخشع..  
ذلك أن الكلمات المندلعة من إصرار أخته كانت تحمل كل رنين  
الصدق.

هذا الرنين الذى يعرفه ويميزه من له فطرة كفطرة «عمر»، تماماً  
مثلما يدرك الفارس الأصيل المجرب، أصالة الخيل من صهيلها!!  
ولو كانت قوة «عمر» قوة عناد وقساوة، لتمادت فى ضراوتها  
ولبلغت من الموقف ما تريد.  
أما وهى قوة تفوق وبطولة، فقد استجابت من فورها لهذا الجلال  
المتبدى أمامها، لهذا الرأس العزيز المرتفع، رأس «فاطمة بنت  
الخطاب» المؤمنة بالله وبرسوله.. ولهذه الكلمات المتوهجة بنور  
الحق الصادحة برنين الصدق.

وفجأة ينهض من فوق صدر «سعيد»، ويبسط يده الضارعة إلى أخته، سائلاً إياها أن تعطيه الصحيفة التي رآها تبرز من تحت ثيابها: - هات هذه الصحيفة، لأنظر ما فيها. وتجيبه أخته: «كلا، إنه لا يمسه إلا المطهرون، اذهب فاغتسل وتطهر».

ويمضى «عمر» كالأنفاس الوديعه الهادئة، هذا الذى كان من لحظات إعصاراً يُدمدم.. ويعود ولحيته تقطر ماء، وتعطيه أخته الصحيفة، ويقراً:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا نَذِيرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) ﴿ [سورة طه: الآيات من ١ - ٨].

ثم يتابع التلاوة فى خشوع وتبقل:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (٩) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى (١٠) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١١)﴾ [سورة طه: الآيات من ٩ - ١٤].

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبلها. وينهض واقفاً ويقول:  
«لا ينبغي لمن هذه آياته، أن يكون له شريك يُعبد معه، دلوني  
على محمد!»!

وهنا يبزغ «خبَّاب بن الأرت» من مخبئه، ويهرول صوب عمر  
صائحاً: «أبشر يا عمر، فو الله لقد استجيب دعاء الرسول لك».  
ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم، وهناك بين يدي  
رسول الله ﷺ يدخل في الدين الحق، ويكبر المسلمون تكبيرة تهتز  
لها مكة جميعاً...!

\*\*\*

في مثل لمح البصر، تمَّ هذا التحول الهائل العظيم، وانتقل إلى  
أقصى رحاب الهدى، رجل كان يقف في أقصى مجاهل الوثنية.  
والطبيعة القوية التي كانت تحتشد لتحرس آلهة قريش من  
زحف الدين الجديد، وثبت الآن وثبة في الضياء إلى الجانب الآخر  
من أرض المعركة بكل بأسها وبكل قوتها، إبَّان لحظة حاسمة أجاد  
توقيتها وأحسن إعدادها قدرٌ حكيم عليم!  
لقد كان «عمر» يزود عن مقدسات الجاهلية، يوم كان يؤمن أنها  
حق..

وهو الآن وقد أسلم وجهه لله، سيضع كل حياته وقوته في خدمة  
دين، آمن أنه الحق..

ذلك أنه رجل يسير وفق إيمانه واقتناعه، لا وفق هواه..

بيد أن إيمانه الأول وإيمانه الأخير لا يستويان.  
 فإيمانه القديم، إيمان لا برهان له - برهانه التقليد الذي  
 يحجب عن العقل ضوء الحقيقة، ويحرم القلب من بهجة الصدق.  
 أما إيمانه الجديد فمعه برهان. أى برهان...!!  
 \* إن الله الذى يعبده اليوم ليس من حجر ولا من مَدَر. إنما هو نور  
 السماوات والأرض، على كل شىء قدير، وبكل شىء عليم.  
 \* والداعى إلى الدين الجديد، ليس واحداً من طراز أولئك الكهنة  
 الذين يرتزقون بالأصنام، ويستمدون سلطانهم من جهالة الناس  
 وترويح الأساطير.. إنما هو «محمد» الذى لم يكن صدقه ولم تكن  
 أمانته موضع ريبة أو شبهة طوال الأربعين عاماً التى قضاهما بين  
 قومه عابداً، قانتاً، طاهراً، باهراً.  
 \* وزملاؤه الجدد، إخوانه فى هذا الدين، ليسوا على شاكلة  
 الآخرين الذين لا همّ لهم سوى اللهو واللعب، والميسر والضياع.  
 إنما هم رعيلاً عظيم وضع وزره، ونصاً عن نفسه غرور الحياة  
 الدنيا، وتهيأ لرسالة كبرى وجهاد عظيم.  
 أجل.. إن الناس الذين هنا. مع محمد رسول الله، قد وجدوا  
 غرضاً عظيماً يحيون من أجله... أما الآخرون الذين خلفهم «عمر»  
 وراء ظهره فيتكفأون على موائد الميسر يزدادون بها سفاهة، أو  
 يتحلّقون حول الأزلام يستفتونها فى حظوظهم العائرة... أو يطوفون  
 حول أصنام من حجارة نحتوها بأيديهم ثم خروا لها سُجداً.

هنا إيمان حق، معه من الله برهان.

هنا إيمان يرفع الرعوس عالية. ويصل الإنسان بالله دون ما حاجة إلى وسيط أو شفيع.

وطبيعة كطبيعة «عمر»، ترفض التبعية، وتستعلى على الإذعان والرضوخ، ليس لها مجال حيوى ولا مُناخ طبيعى إلا فى دين كهذا الدين حيث يقف الناس سواسية كأسنان المشط، وحيث أكرمهم عند الله أتقاهم، وحيث يَعْبُقُ الطهر ويتضوّع الحق، وحيث يتلو «محمد» آيات ربه فتتبدى من خلالها معالم الحياة الوافدة، والمصاير الواعدة وتسمع الأبواب فيها صلصلة الحقيقة، وتجد الأفتدة معها برد اليقين!..

\*\*\*

إن القوة نفسها والأصالة نفسها، تعملان فى الطبيعة الفريدة «لعمر» بعد أن صار الإسلام له ديناً. ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقاً بعيداً عنها قبل الإسلام؛ ذلك أنها وجدت نُهاتها، وهُداها، ولم يعد مجالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة، أو تلك الشئون الضحلة لحياة مكة، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسماء وبالأرض جميعاً، وصار موضوع نضالها ديناً يدرك بفتنته المشرقة أنه لن يقتصر على أرض الرمال، والإبل، والشعر، بل سيزحف مشرقاً ومغرباً حتى يغمر العالمين!!

من أجل هذا يبدأ القلق الذكى فى الطبيعة العمرية من أولى لحظات إسلامه. فيقول لرسول الله ﷺ :

– «ألسنا على الحق فى مماننا ومحيانا؟...».

ويجيبه الرسول: «بلى يا عمر. والذى نفسى بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حييتم».

يقول «عمر»: «ففيم الاختفاء إذن..؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن، ولنخرجن معك».

ويخرج الرسول والمسلمون معه فى صفين. «عمر» فى صف، و«حمزة» فى الصف الآخر.

وبهذه الخطوات التى استحثها «ابن الخطاب»، بدأ الزحف الطويل المبارك الذى استمر ألفاً وأربعمائة عام. ولا يزال..!!

إن الرجل الذى جاء منتضياً سيفه ليقتل رسول الله، قد تحوّل فى لحظات سعيدة إلى مؤمن بالله وبرسوله. فماذا عساه يفعل الآن؟ ما الامتداد الذى ستواصل طبيعته المسير فيه؟

وما ردُّ الفعل الذى سيكيف وجهتها الجديدة؟ إن خواطره السريعة لتَهْلُ.. وكأنها تتحرك وفق «خارطة» مفصلة قد وُضعت سلفاً..

ولسوف يُتابع عمر «المسلم» أداء المهمة التى بدأها عمر «الوثنى» ولكن فى مستوى أعلى، وغاية أرفع..

أجل، لقد خرج من داره مُنتَضِيًّا سيفه قاصدًا دار الأرقم ليصرع الباطل.

حسن. فليمض لغايته، ولْيواصل مهمته.. غير أنه الآن لن يصرع الحق الذى كان يتوهمه باطلا.. بل سيصرع الباطل الذى طالما توهمه حقًا..!

سيصرع الباطل الذى هو باطل، والذى انخدع «عمر» عن زَيْفِهِ وحقيقته فترة من الزمان.

وإنه الآن، وقد كُشِفَ عنه غطاؤه، لِيُدْوَى بصوته الجسور:  
- «والله، لن أترك مكانًا جلست فيه بالكفر إلا جلستُ فيه بالإيمان»..!

وإن مع طبيعته من الذكاء والمقدرة ما يجعلها مُهيأة للعمل دومًا، واطعة عينيها على الهدف أبدًا.

وهو لهذا وبهذا، رجل لا يعرف أنصاف الحلول، ولا ينام على الضيم لحظة من نهار أو مساء.. والضيم عنده أشمل وأعم من أن يكون رَهَقًا ينزل به، أو خَسْفًا يُسَامُهُ.. والضيم أيضًا أن يعجز عن تحقيق ذاته، وإنجاز مشيئته، وبلوغ الأمر الذى يريد.

وهكذا رأى من الضيم أن يترك معالم جاهليته تعيش ولو خابية كابية، ومن ثمَّ فإن آثار قدميه فى طرقات مكة حيث كان يذرُعُها مندداً بالإسلام، ومتعقباً ذويه، لا بد أن تذوب وتتلاشى فى خطواته

الجديدة الثابتة التي سيذرع بها الطرقات نفسها مُسبِحًا بحمد الله  
ومقدّمًا له..

وكل مكان رفع فيه عقيرته لاهجًا بأصنام قريش. لا بد أن يجلجل  
فيه بـ «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»..!!

أجل، سيتعقّب «عمر» كل حركاته، وكل كلماته، وكل خلجاته  
التي ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة أعوام، منذ بدء  
الرسالة حتى يوم إسلامه..

سيتعقبها في كل مظانها ومواطنها، وسيضع مكان كل سيئة  
حسنة.

سيقتلع جميع الأشواك التي ملأ بها طريق «محمد» وصحبه،  
وسيغرس مكانها أزاهير.. سيزرعها حبًا، وتفانيًا، وسيشتري أمن  
هذا الدين بحياته، جميع حياته..!!

إن طبيعته تنادى الزمان والمكان، بل تلغيهما إلغاء لتظل لها  
سيادتها وتفوقها. فإذا أخطأ عمر في زمان ما، في مكان ما.. ثم  
أراد أن يصحح خطأه، فليس يكفي فطرته الفذة النادرة أن تتجنب  
الخطأ.. بل هي تريد اقتلاعه تمامًا، واقتلاع الزمان والمكان اللذين  
كانا للخطأ وعاء..

ومن ثمّ فهي تأبى إلا أن تعود للمكان نفسه، ولو استطاعت  
لاستردت الزمان نفسه لتقول إن ذلك الخطأ لم يكن. ولا كان المكان  
الذي شهدته، ولا الزمان الذي احتواه!!!

من أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر، فجلس فيه بالإيمان - أكان ذلك كافيًا..؟

لا، فهناك عمل كثير وقدير، سيواصله عمر حتى يحس أنه قد طهر نفسه من كل آثام جاهليته..

فهو يذكر أن تمسكه السالف بدين قريش، كان من أهم أسباب الاضطهاد الذي لقيه الرسول وصحبه.. واليوم وقد آمن، فلا بد أن يكون إسلامه عاملاً حاسماً في شد زناد المقاومة الإسلامية.

أجل بالأمس كانت وثنيتها من الأسباب التي حملت المسلمين وهم قلة، على الفرار بدينهم إلى «دار الأرقم» حيث يعبدون الله خفية.. واليوم، لا بد أن يكون إسلامه عاملاً حاسماً في الجهر بالدعوة ونبذ التخفي والمداراة.

وإنه ليذهب إلى رسول الله فيقول:

- «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما يحبسك، فوالله ما تركت مجلساً كنت أجلس فيه بالكفر، إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف - ألا إننا لن نعبد الله سرّاً بعد اليوم»..

ويستجيب الرسول لرأيه، وتخرج الدعوة من مكنها إلى أرض الله الواسعة.

أفهل يكتفى عمر بذلك..

كلا، فلا يزال ثمة خطوة تبهر الأبواب حقاً.

لقد تذكر «عمر» أنه بالأمس كان كفار قريش يأخذهم الزهو لأن «عمر» يضرب بيده أصحاب «محمد».. فليمنح المسلمين اليوم زهواً مثله.. وهو إذا كان لن يستطيع الآن أن يعلو بقبضته رءوس صناديد قريش وظهورهم، فليرفع من شأن العذاب الذى يلقاه ضعاف المسلمين بأن يشاركهم فيه، وليأخذهم الزهو، بأن «عمر» الجسور العملاق المهيب يُضرب مثلما يضربون، ويُضطهد كما يضطهدون!!!

نعم... لن يظلَّ اضطهاد قريش وقفاً على «بلال»، و«خبَّاب»، و«عمار»، و«صهيب»، وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين، بل لابد أن يصَلاهم معهم فتى الفتيان هذا، الذى تسبقه هيئته، والذى تنخلع أمام سطوته الأفئدة والقلوب.

لابد أن يُضرب «عمر» كما يضربون، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذلة تكسر نفوسهم، وتدغدغ كرامتهم، وبهذا أيضاً يتم «لعمري» إسلامه؛ إذ تتم له المساواة مع المسلمين فى دفع الثمن الذى يشترطون به راية الله...!!

هكذا فُكِّر «ابن الخطاب».. هكذا فكر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السوية.

ولكنَّ أنى له هذا، وهو المرهوب الجنب إلى الحد الذى يجعل مجرد التفكير فى مُشَاناته مغامرة خاسرة..؟

إذا أراد «عمر» أن يكون الظافر المنتصر، فلن يُعييه السبيل،  
أما أن يكون المضروب المنهزم، فهذه هي المشكلة الكبرى التي  
يحتاج الظفر بحلها إلى جهد كبير.

فمن الذى يجروا أن يضرب «عمر» فى قريش كلها..؟؟  
ولكن «عمر» قرر أن يرفع من قيمة العذاب الذى يلقاه إخوانه،  
بأن يتعرض له، ويأخذ نصيباً منه.

أجل، لقد قرر وأراد، وما دام قد أراد، فلا بد أن يوجد الطريق..  
ويرسم خطته، ويبدأ جولته بأبى جهل، فيذهب إليه فى داره  
ويقرع الباب ويخرج أبو جهل ليجد أمامه «عمر»، فيغلق الباب  
دونه.

ويمر بأشراف قريش فى دورهم متحدياً، رجاء أن يخوض  
أحدهم معه معركة يخرج منها بلطمة فى صدره، أو جرح فى  
وجهه!!«! ولكنهم جميعاً يتحاشونه ويتحامونه..  
وأخيراً يقرر أن يلقاهم عند الكعبة وهم مجتمعون هناك،  
ولا يكاد يبلغهم حتى يستثيرهم بالحديث.

ولنصغ إليه يروى بقية ما حدث:

يقول ﷺ:

«وشار إلى الناس يضربوننى وأضربهم، فجاء خالى وقال:

ما هذا؟.. قالوا: ابن الخطاب، فقام على الحجر وقال: ألا إني

قد أجرتُ ابنَ أختي، فانكشف الناس عني، فكنت لا أزال أرى الذين يُضربون من المسلمين، وأنا لا يضربني أحد، فقلت: ألا يصيبني ما يصيبهم؟ فجننت خالي، وقلت له: جوارك مردود عليك.. قال: لا تفعل يا ربن أختي. قلت: بل هو ردُّ عليك قال: ما شئت فافعل، فما زلتُ أضرب وأضربُ حتى أعزَّ الله بنا الإسلام»..

\*\*\*

هذا السلوك الباهر الذي يتبدى من «عمر»، إنما ينبثق من طبيعة استوفت كل عناصر الكمال، والسؤدد. طبيعة لا يزحم إخلاصها للمسئولية شيء مَّا، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل.. والرجل الذي وقف موقفه هذا أول إسلامه، هو الذي سنلتقى به فيما بعد. أميرًا للمؤمنين، وجيوشه تثلُّ سلطان كسرى وقيصر فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع، ثم يقول:

— «أيها الناس، لقد رأيتني وأنا أرى غنم خالات لي من بني مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب»..

ثم ينزل من على المنبر بين دَهَش المجتمعين وتساؤلهم.. ويتقدم منه رجل لم يُطق على ما رأى صبرًا، وهو «عبد الرحمن ابن عوف» ويقول له: ما أردتَ إلي هذا يا أمير المؤمنين؟؟ فيجيبه «عمر»:

— «ويحك يا بن عوف، خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟.. فأردت أن أعرفها قدرها»..

هذه طبيعة مستقيمة، ليس بداخلها عَوَج، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه.  
ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظيمًا، لا يبغى على ما يعمل جزاء أو سُكُورًا.. إنما يعبر عن طبيعته الممتلئة التي وضعها في خدمة الله، ونذرها لدينه..  
وكلما ملأت الرّحب بنشاطها الفذ، وقدرتها الهائلة..  
وكلما أخرجت من حَبْنِهَا وِثْرَائِهَا النفسى الذى لا ينفد..  
وكلما نسجت لله راية، وهدمت للشرك قلعة، وأدت لإنسان حقًا..

كلما فعلت هذا، كان عمر سعيداً جَدَّ سعيداً...!!!

